

الأصول الفكرية والمعرفية للدراسات ما بعد الكولونيالية؛ من

فرانز فانون إلى إدوارد سعيد

The intellectual and epistemic origins of postcolonial studies;
From Frantz Fanon to Edward Said

زينب بن يوسف*

تاريخ النشر: 2024/12/20	تاريخ القبول: 2024/05/15	تاريخ الإرسال: 2024/03/07
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

شهدت الساحة الفكرية مع مطلع النصف الثاني من القرن العشرين تغيرات جذرية انطلاقاً من النقلة ما بعد حداثة، الأمر الذي أسهم بشكل كبير في التأسيس لفكر نقدي جديد، يسعى إلى مساءلة الخطابات وتفكيكها، وفي هذه الورقة البحثية حاولنا أن نغوص في دراسات فرانز فانون وإدوارد سعيد كعلمين أساسيين باعتبار أن هذه الدراسات هي نقطة البداية لمرحلة جديدة تمّ فيها إعادة بلورة المفاهيم وتعرية الخطابات كاشفين بهذا عن البنيات الفكرية والثقافية المتوارية خلف تلك الخطابات الكولونيالية والاستشراقية.

ولا شك أن نظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي قد تأسست على عاتق هذين المفكرين فجاء فانون محاولاً تصحيح النظرة الاستعمارية لإنسان العالم الثالث الذي كانت المحاولات حثيثة لإخراجه من دائرة الإنسانية، ليأتي بعده إدوارد سعيد ويدرس الخطابات التي ساهمت وساعدت في خلق تلك النظرة إذا لم نقل أنها أسست لها لأن كتابة التاريخ تحفر في عمق الحضارات وفي اللحظة نفسها تتولد هي منه.

* مخبر الدراسات المصطلحية والمعجمية، جامعة يحيى فارس بالمدينة

Benyoucef.zineb@univ-medea.dz

الكلمات المفتاحية: الدراسات الكولونيالية، الدراسات ما بعد الكولونيالية، الاستشراق.

Abstract:

With the beginning of the second half of the twentieth century, the intellectual arena witnessed radical changes starting from the postmodern shift, which contributed greatly to the establishment of a new critical thinking that seeks to question and deconstruct discourses. We attempt in this paper to dive deep in the studies of Franz Fanon and Edward Said as essential scholars, given that these studies are the starting point for a new phase in which concepts were re-crystallized and discourses exposed. Thus, revealing the intellectual and cultural structures hidden behind those colonial and orientalist discourses.

There is no doubt that the theory of post-colonial discourse was founded on the shoulders of these two thinkers. Fanon came trying to correct the colonial view of the Third World man, whom attempts were made to remove from the circle of humanity. Edward Said came after him and studied the discourses that contributed and helped in creating that view, if we do not say that they founded it. It is because the writing of history digs itself deep into civilizations and at the same moment is generated from it.

Key words: Colonial studies, postcolonial studies. Orientalism.

المؤلف المراسل: زينب بن يوسف Benyoucef.zineb@univ-medea.dz

*** **

مقدمة:

لا ريب أن المنحى الحضاري للأمم والشعوب لا يكون على وتيرة واحدة، إذ دائما ما تكون كفة قوية وأخرى ضعيفة، ومن النادر أن تجد كل الأمم والشعوب في لحظة زمنية واحدة على وتيرة واحدة، فدائما ما يكون هناك سيد ومسود، قائد ومقود، مسيطر ومسيطر عليه، وكيفما كانت هذه السيطرة، فقد تكون استعمارا واقعا أنيا كما قد تكون استعمارا ثقافيا حضاريا.

ولأن الاستعمار جريمة إنسانية عظمى تقوم على التدمير المادي والمعنوي، نجد مثقفي ومفكري البلدان التي وقعت تحت وطأته وعانت ويلاته وذاقت مرارته قد حاولوا دراسة خطاباته الاستعمارية وتفكيكها ليتمكنوا من تفنيد ما جاءت به.

كما نجد أدباء المستعمرات قد أنتجوا آداباً تتبطن نظرة معاكسة تسعى إلى إعادة بناء كينونة أوطانهم التي همشت وشُوّهت، محاولين صياغة سرديات جديدة تجابه السرديات الكبرى التي تركزت وأزاحت كل ما سواها، وفي سياق هذا برزت نظرية جديدة وهي ما عرفت بالنظرية "ما بعد الكولونيالية" التي اهتمت بتتبع تبعات الاستعمار المعرفية.

ولعلنا نقف متسائلين عن أهم ما أتى به فانون وسعيد، كيف تمكنا من تغيير بوصلة الفكر وزعزعة الخطابات المركزية وفضحها؟ الأمر الذي جعلهما من أهم الأسماء البارزة واللامعة في تشييد النظرية ما بعد الكولونيالية وتطبيقاتها في مجال الدراسات الأدبية.

1. الدراسات ما بعد الكولونيالية:

نجد الكثير من المعتنين بالنظرية ما بعد الكولونيالية قد اجتهدوا في فكّ ذلك التداخل بين مصطلح "الخطاب الكولونيالي" ومصطلح "النظرية ما بعد الكولونيالية"، أما الخطاب الكولونيالي فإنه "يشير إلى تحليل ما بلورته الثقافة الغربية في مختلف المجالات من نتاج يعبر عن توجهات استعمارية إزاء مناطق العالم الواقعة خارج نطاق الغرب على أساس أن ذلك الإنتاج يشكل في مجمله خطاباً متداخلاً بالمعنى الذي استعمله فوكو لمصطلح الخطاب".¹ فهو يقوم إذاً على تفكيك الخطابات الغربية وغربلتها وفحصها فحصاً دقيقاً يكشف عن أنساقها المضمرة في حين أن "المصطلح الثاني النظرية ما بعد الاستعمارية فيشير إلى نوع آخر من التحليل ينطلق من فرضية أن الاستعمار التقليدي قد انتهى وأن مرحلة من الهيمنة تسمى أحياناً المرحلة الامبريالية أو الكولونيالية قد حلت وخلفت ظروفها مختلفة تستدعي تحليلاً من نوع معين".² فقد أسست الثقافة الغربية الاستعمارية منظومات فكرية تدميرية، تسلطت

على كل ما سواها فمارست العنف الآني والعنف البعدي، وأصبح لزاماً أن يحلّل الخطاب تحليلًا تنقيبياً يقتضي آثار الاستعمار المعرفية التي لاتزال تحاول التغلغل بين الثنايا.

2. فرانز فانون:

يعتبر عالم النفس المارتينيكي (فرانز فانون) (FRANTZ FANON) أول مؤسس لمدرسة ما بعد الكولونيالية، وكان أول سبب لانطلاقته هو تتبعه للحالات النفسية التي كان يعاني منها المرضى في مستشفى الأمراض العقلية والنفسية بالبليدة، الجزائر، وذلك حينما كان يمارس مهنته كطبيب نفسي، فكل الحالات التي أشرف على علاجها لم يستطع أن يطبق عليها ما تعلمه ودرسه في الطب النفسي الأمر الذي أصابه بالذهول والحيرة.

ومن هنا انطلق فانون باحثاً عن السبب وراء عدم مطابقة ما صادفه في واقع الحالات النفسية المستعصية_ مع ما اكتسبه ودرسه في علم النفس، ليكتشف لاحقاً أن هذا الأمر المحير الذي اعترضه في رحلته العلاجية يصنّف من بين تبعات المستعمر الفرنسي العويصة والصعبة على المواطنين الجزائريين، فعلى غرار الدمار المادي الذي لحق بالبلاد والعباد أبان وبعد الاستعمار ها هو فانون يميّط اللثام عن جرائم أخرى تركها الاستعمار اجتماعية ونفسية كميّراث لأهل البلاد المستعمرة.

وبتتبعنا للدراسات ما بعد الكولونيالية نجد (فرانز فانون) يعتبر "أول مبشر لهذا الحقل المعرفي، ومن وضع اللبّات الأولى لما بعد الاستعمار من خلال كتاباته المناهضة والدّاعية لفكفكة كلّ استعمار، وخاصة في كتابه معذبو الأرض الذي يعتبر كتاباً هاماً ومهمّاً لهذا الحقل المعرفي الجديد، أضف إلى ذلك كتابه بشرة سوداء أقنعة بيضاء الذي تعرض فيه إلى دراسة عميقة لظاهرة الاستلاب والتبعية العمياء"³ كلا الكتّابين لفانون كانا من بين أهمّ الدعائم المعرفية التي حظيت باهتمام المحللين والنقاد لكونهما مهذا الطريق المعرفي للدراسات ما بعد الكولونيالية، وذلك

حين يبين فانون علاقة المستعمر بالمستعمر وكذا إصراره على إجبارية الثورة وأحقية الشعوب في تقرير مصيرها ومحاولاته الملحة في تحرير الأرض والفكر.

يؤكد فانون أن الاستعمار يحطم إنسانية الإنسان ويشوهها وقد تبني هذا الموقف وهذه الرؤية بعد تتبعه لحالة مرضاه في المستعمرات وكذا تتبعه التاريخي لتبعات الاستعمار فقد "تحدى فانون النظرة الانسانية الليبرالية الأوروبية بشأن الذات محتجا بأن السكان الأصليين والقبائل والجماهير والفلاحين وأمثالهم يتعرضون في الوضع الكولونيالي لعملية نزع انسانيتهم بصورة كاملة بفعل عنف الواقع الكولونيالي وخطاباته التي تصل الى درجة أنهم لا يبدون قادرين على الربط بين أفكارهم والذات"⁴ إن الانتهاكات التي تعرضت لها الشعوب المستعمرة لا تقتصر على الأرض فقط بل تتعداها إلى كل ما فوقها، فكما سلبت الخيرات كان الزحف كذلك لسلب الذوات، فمحاولة طمس الذات المستعمرة كانت من ضمن أهم النقاط التي استهجنها فانون ولم يرضَ بها.

استطاع (فانون) أن يبين الوجه الثاني للاستعمار وذلك حين "فهم بأن نهاية الاستعمار لا تعني نهاية الكولونيالية، فالعلاقة الموجودة بين المستعمر والمستعمر لا تختزل في الأبعاد المادية والفضائية لأنها تنبني على حالة نفسانية تقتضي أدوات تحليلية خاصة ومختلفة، بتعبير آخر يعد خروج الاستعمار من الأرض فقط دون خروجه من الذات بمثابة إعادة إنتاج للسيرورة الكولونيالية"⁵ فلا شك أن (فانون) قد أصرَّ على إثبات فكرة مفادها أن التحرر لا يقتصر على خلّو الأرض من المستعمر بل هو عملية تجمع بين تحرير الأرض وتحرير الفكر وتحرير الذات وقد يكون تحرير هذه الأخيرة هو اللب في العملية التحررية من خلال النظرة الفانونية.

ونجد (فانون) قد استعمل نظريات التحليل النفسي ليتمكن من الغوص في نفسية المستعمر والمستعمر على حدّ سواء بداية من مرحلة الاستعمار وصولاً إلى مرحلة الاستقلال حيث يصر على أن التحرر لا يكون تفضلاً ولا يكون اتفاقاً بل يكون مشروعاً

يُخطط له ويسعى من أجله كل شعب مستعمر وكل شعب يرفض الهيمنة الاستعمارية، ولا يقبل بالتصنيفات الدونية التي همشته.

ولعله قد ركّز في كتاباته وعلى وجه الخصوص كتابه معذبو الأرض على ضرورة مجابهة العنف بالعنف إذا ما أُريد للاستعمار أن يزول ويندثر باعتباره أن الشعوب المستعمرة مرآة عاكسة لما تواجهه لتتمكن من التخلّص منه "وأصبح فانون بذلك معنيا بكيفية استخدام العنف في قلب أوضاع الظلم السائد، حتى تستطيع النفس المستعمرة تحقيق التقدم والنفس الفردية الأصيلة"⁶ واستطاع بهذا (فانون) أن يكون داعيا للقوة والمواجهة المباشرة مع المستعمر، واضعا شرطية العنف من أجل الوصول للتحرر المنشود، وهكذا غدا العنف عند فانون طريقة واستراتيجية لا بد من الالتزام بها.

فانطلاقا من نقد (فانون) بدأت تظهر للعيان بشائر نظرية جديدة وفي ذات سياقها خاض المفكرون والنقاد من بعده.

3. إدوارد سعيد:

إذا كان (فانون) هو المبشّر الأول للدراسات ما بعد الكولونيالية فإن (إدوارد سعيد) هو المنظر الأول لها، فقد جاء ليقوم منظومة نقدية قائمة على التنظير لدراسات الخطاب الكولونيالي ثم النظرية ما بعد الكولونيالية، وأصبح من أهمّ النقاد والمقارنين كما يعدّ من المفكرين العرب البارزين الذين قرأوا الأدب قراءة ثقافية، فقد عمل بجدّ على تفكيك الخطابات الاستشراقية ليتوصل إلى كونها خطابات استعمارية قمعية تسعى إلى فرض هيمنتها من خلال التسلّط على الآخر الشرقي وتجسد هذا في كتابه "الاستشراق" الذي هدف من خلاله إلى توضيح أن الغرب استعمل المعرفة كوسيلة استعمارية.

لقد عملت مجهودات (إدوارد سعيد) وأفكاره وتحليلاته ومقولاته على جعله "من أوائل المثقفين الذين وجهوا خطابا قويا لتفكيك الخطابات الغربية....، رافضا الروايات الغربية للتاريخ، فاتحا الباب أمام بروز خطاب تاريخي مغاير، خطاب

يتخلّص من السلطة والهيمنة، خطاب يتخلّص من الرؤية التي تجعل الشرق تابعا فكريا، خطاب يحول الشرق من موقع التابع إلى موقع الفاعل في تأسيس الثقافة الغربية ذاتها"⁷ فسعيد وجّه الأنظار نحو الزيف الذي التفّ بتاريخ الشرق، فحوّصر وأفرغ من حقائقه، وطالب بأخذ أقلام تاريخ الشرق من الغرب لتكون الخطابات مغلّصة خالصة تحمل حقائق ثابتة لا إيديولوجيات مزيفة ومغلّوطة.

وبنظرة موسعة لكتابه الاستشراق، فإننا نلاحظ أن أهم فكرة سعى إلى توضيحها تتمثل في "العلاقة بين الحقيقة والواقع وكيفية خدمة المعرفة للهيمنة والتسلّط، وهي الفكرة التي تبرز في كتابه، كما تبرز أيضا في كتابه الثاني الثقافة والإمبريالية، والفكرة الأساسية التي يريد توضيحها فيهما هي أنّ "المعرفة ليست بريئة، لكنها ترتبط بعمق عمليات السّلطة، هذا التبصر الفوكوي يمنح عمل سعيد التأسيسي "الاستشراق" جوهره، بما يظهر إلى أي درجة كانت المعرفة حول الشرق من حيث إنتاجها ونشرها شيئا إيديولوجيا ملازما للسلطة الاستعمارية"⁸ كشفت الحقائق وعُريت الخطابات ونزع (سعيد) ثوب البراءة المزيفة الذي كان يستر عورات الخطابات الممزوجة بنكهة الاستعمار الذي لم يزل يرمي بجذوره وبذوره في كل ما هو شرقي، كما توصل (سعيد) إلى أن الغرب يحدد صفات خاصة ثابتة بل قد تكون في نظره وراثية تشكل جوهر الشرق وكلها صفات سلبية أُفرغت كليّا من صفات الإنسان.

لا ريب أنّ دور المثقف في النهوض بالثقافة وإعادة وضع أسس صلبة لأمتة وكيانها الثقافي والحضاري والتاريخي بعد المرور الاستعماري ومخلفاته الفكرية والابستمولوجية، قد يكون موازيا لدور المناضلين و المكافحين إبان الاستعمار، حيث "يعد سعيد هذه المجهودات التي بذلها هو ومجموع مثقفي العالم الثالث في محاولة تسعى إلى تخليص تاريخهم من النظرة الاستعمارية القائمة على الفبركة والتشويه ومخاطبة الغرب بلغته، والقدرة على إقامة تحد لكل الكتابات الغربية "جزءا من الجهد ما بعد الاستعماري لإصلاح ما أفسدته الإمبريالية من تقاليد وتواريخ

وثقافات"⁹ كما يستوجب على المثقف بوصفه مقاوما للإمبريالية الغربية أن يبني خطابا مضادا يدحض به الصورة النمطة التي رافقته ورأفت أمتة معه.

لطالما كانت الممارسة أكثر وضوحا من التنظير، ومن خلالها يتكشف الغامض ويتضح المهم ولذلك "قد تجرأ سعيد على نصوص بارزة في السياقات الكولونيالية كي يبين أن للنص شعورا كولونياليا مسكونا بإيديولوجية إقصائية"¹⁰ وذلك بعد قراءته لرواية "الغريب" لألبير كامو، وكذا رواية "قلب الظلام" لجوزيف كونراد؛ حيث مارس عليهما وعلى غيرهما ما كان قد نظّر له، فاستطاع كشفا لصورة الكولونيالية التي يقولها الغرب وفقا لرؤيته الإمبريالية.

ومن خلال مؤلفاته وعلى رأسها كتابه "الاستشراق"، استطاع (إدوارد سعيد) إزالة القناع عن الخطابات الغربية عامة والاستشراقية خاصة، ليتضح أنها ليست بريئة، فغالبا ما كانت الخطابات الاستشراقية لا تستند إلى الموضوعية في طرحها وتصويرها للشرق، بل تشكل صورة مغالطة تماما تعكس ثقافتها التي تملي عليها رسم صورتها المتعالية القدسية موازاة بتهميش الآخر الشرقي ورسم صورة دونية له.

وقد سعى (إدوارد سعيد) إلى "إبراز النسق المعرفي الذي يحكم الاستشراق...ومن أبرز معالم هذا النسق كما بيّنه سعيد، هو أن الاستشراق أسلوب معين في الثقافة الغربية في التحدث عن الشرقي والبحث فيه وتوظيفه أسلوب يعكس الثقافة المنتجة أكثر مما يعكس موضوع التأمل أو التخيل أو البحث وهو الشرق"¹¹ فمن خلال خطابات الاستشراق استطاع أن يستخرج (إدوارد سعيد) النسق المهيمن فيها كما ذكره في كتابه وهو نسق الهيمنة؛ الذي تجسّد في هذه الخطابات مشكلا صورة سلبية عن الآخر "الشرقي" باعتباره تابعا وضعيفا مقارنة بالأنثى "الغربي"، حيث غالبا ما يظهر بصورة راقية ومتحضرة وفي مكانة عالية، ذلك أن الخطابات الاستشراقية تركز على تلميع صورة الثقافة المنتجة "الثقافة الغربية" وتسعى جاهدة إلى رسم صورة إيجابية تضم كل صفات السمو والتقدم والقوة لتشكل بهذا صورة دونية عن الآخر.

4. خاتمة:

الأصول الفكرية والمعرفية في دراسات ما بعد الكولونيالية تركز على تحليل العلاقات السلطوية والثقافية بين البلدان المستعمرة والمستعمرة.

فرانز فانون، كان من بين المفكرين الذين ساهموا في تطوير فهمنا لتأثير الاستعمار والسيطرة الثقافية على الهوية والثقافة للشعوب المستعمرة. عمله يركز على الدراسات الثقافية والسياسية للاستعمار.

إدوارد سعيد، الناقد الأدبي الفلسطيني الأمريكي، شد انتباه العالم إلى الاستعمار وأثره على الثقافة والهوية. عمل سعيد يركز على دراسة الأدب كوسيلة لفهم السلطة والهوية في سياق الاستعمار والاستعباد.

منهج دراسات ما بعد الكولونيالية يشمل تفكيك السلطة والهوية والثقافة بمنظور يركز على التأثيرات البنيوية والاجتماعية والثقافية للعلاقات الاستعمارية. هذا المنهج يشجع على النقد الثقافي والتحليل النقدي للعلاقات القوة والسيطرة في سياق ما بعد الاستعمار.

يتطلب هذا المنهج استخدام أدوات تحليلية متعددة تشمل الدراسات الأدبية، والنقد الثقافي وغيرهما، لفهم العواقب الثقافية للتاريخ الاستعماري وتأثيره على المجتمعات المستعمرة والمستعمرة سابقاً.

5. الهوامش:

¹ سعد البازغي، ميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3، الدار البيضاء (المغرب)، 2002، ص158.

² المرجع نفسه، ص158.

³ مجموعة مؤلفين، العين الثالثة تطبيقات في النقد الثقافي وما بعد الكولونيالي، ميم للنشر، ط1، الجزائر، 2018، ص174.

⁴ فانون المخيلة بعد الكولونيالية نايجل سي. غبسون تر: خالد عايد أبو هديب، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، ط1، بيروت، 2013، ص34.

⁵ وحيد بن بوعزيز، جدل الثقافة مقالات في الأخيرة، الكولونيالية، الديكولونيالية، منشورات ميم، ط1، الجزائر، 2018، ص31.

⁶ فرانز فانون، دافيد كوت، تر: عدنان كياي المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 1971، ص53.

⁷ زكية عرعار، الخطاب النقدي ما بعد الكولونيالي عند مصطفى الأشرف، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، عمان الأردن، 2022، ص148.

⁸ سليم حيولة، استراتيجيات النقد الثقافي في الخطاب المعاصر من القراءة الجمالية إلى القراءة الثقافية _بحث في الأصول المعرفية_، دارميم للنشر، ط1، الجزائر، 2021، ص343.

⁹ زكية عرعار، الخطاب النقدي ما بعد الكولونيالي عند مصطفى الأشرف، ص154.

¹⁰ وحيد بن بوعزيز، جدل الثقافة مقالات في الآخرة والكولونيالية وديكولونيالية، ص20.

¹¹ سعد البازعي، ميجان الرويلي، دليل الناقد الأدبي (مرجع سابق)، ص37.